فى كتاب الوصف ، لو أنهم كانوا يريدون الخير أو يقصدون الوصف للوصف . ولكنهم فعلوا هذا للنكاية والتندّر ، لم يرسموا واقعاً فيما نرى ، ولم يصوروا منظراً للإعجاب به ودفع الناس إلى حبه ، وإنما قصدوا إلى الهجاء فوقعوا فى هذا الباب ، وتمثلنا بهم فى رسم العيوب الجسدية ، خلال السنين الأولى لأدبنا العربى .

فلما تقدّمت الأيام كان الحطيئة بارعاً فى هذا الهجاء للخلقة ، حشد فى ديوانه صوراً كثيرة لكلّ من رأى وصادف ، حتى إنه رسم وجهه وخلقته فقال :

أبَتْ شَفَتاى اليوم إلا تكلّمـاً ... بسوءٍ فما أدرى لمَنْ أنا قائلُهْ
أرى لى وجهاً شوّه اللهُ خَلْقَهُ ... فَقُبِّحَ مِنْ وَجهٍ وقُبِّح حامله

وذهب هذا البيت مثلا فى هجاء الشاعر لوجه يحمله ويكره أن يقابل به الناس لشذوذه وتنافر الأعضاء فيه . وأما الفم فقد رأت الزوجة فيه جيفة الخنزير وفضلت على القعود معه خوض المنايا فقالت :

لوَ انَّ المنايا أعرَضَتْ لاقتحمتها ... مخافةَ فيه ، إن فيه لداهيهْ
فما جيفةُ الخنزير عند «ابن مُغْرِب» ... قتـادة » إلا ريح مسك وَغاليهْ
فكيفَ صطبارى يا «قتادةُ» بعد ما ... شممتُ الذى من فيك أثأى حماضيه

فانظر إلى هذه الزوجة تفضل جيفة الخنزير ، وتراها مسكاً وغالية إذا قورنت برائحة الفم عند زوجها ، فهى لا تصبر عليه ، ولا تريدُ البقاء معه وإنما تهربُ من بيت هو فيه لأنه يبعثُ الكراهية والشماس .

وقال جريرٌ يهجو أم الأخطل ، ويصور منخريها :

غليظةُ جِلد المنخرين مصـنَّةٌ ... على أنف خنزير يُشَدُّ نِقـابها

فيرسم جلدَ المنخرين فى غلظة ، ويرى فيها أنفاً كالخنزير قد شدّت عليه النقاب ، فليس فى النظر إليها جمال أو دلال أو نشوة ، وإنما بشاعة تفوق الخنزير بعد أن عرفنا ما للخنزير عندهم من قدر وحرمة !

وجرير يهجو النساءَ التغلبيات فى صورة تُبعدهنّ عن كلّ حسن فيقول :